الإفصاح عن لفظتي الجراحة والجراح (١)

الدكتور ميشيل الخوري

من الألفاظ التي يكثر استعمالها في هـذا الزمن لفظتا الجرّاح والجرّاحة . ونعني بالجرّاح الطبيب الذي يزاول الجراحة ، ونعني بالجراحة الفرع العمليّ من الطب ، وهو الفرع الذي يتم العمل فيه باستعمال اليدين المجردتين أو المزودتين بالآلات ، أو هو فرع الطب الذى يُعنى بالأمراض والحالات التي يُلجأ في علاجها إلى الاجراءات العملية أو اليدوية. ويبدو لدى مراجعة مؤلفات العرب القدماء ، أن لفظتي الجراح والجراحة بالمعنى الحديث لا يعود استعمالهما الى أبعد من أواسط القرن السابع الهجري أو الثـــالث عشر الميلادي ، وأن أقدم النصوص العربية التي استُعملت فيها هاتان اللفظتان ، هو على الأرجح كتاب العُمدة في صناعة الجراحة لأبي الفرج يعقوب بن اسحق بن القُف المولود في الكرك سنة ٦٣٠ والمتوفى في دمشق سنة ٦٨٥هـ . ولاريب في أن ابن القف حين استعمل لفظة الجرّاح في كتاب العمدة اراد الاعتياض بها عن مصطلحين آخرين كان استعمالهما شائعاً في عصره وهما صانع اليد والجرائحيّ ، وأنه حين استعماله لفظة الجراحة أراد الاعتياض بها عن مصطلح آخر هو عمل اليد أو صناعة اليد .

المصطلحان صانع اليد وعمل اليد

يعود استعمال المصطلحين صانع اليد وعمل اليـد الى زمن سبق الزمن الذي عاش فيه ابن القف أي يعود الى ما قبل القرن السابع الهجري ، فان أبا القاسم

---

(١) أُلقي هذا البحث في الجلسة التي عقدها مجلس مجمع اللغة العربية بدمشق في مساء يوم الخميس ٥ نيسان ١٩٧٣ . ويشكر صاحبه الاستاذ الدكتور حسني سبح رئيس مجمع اللغة العربية بدمشق والاستاذ أحمد راتب النفاخ لإرشاده الى عدد من المراجع التي استعان بها في بحثه.

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

خلف بن عباس الزهراوي المولود في الزهراء بالاندلس نحو السنة ٣٢٤ والمتوفى فيها نحو السنة ٤٠٢ هـ ، استعمل المصطلح عمل اليد في كتابه التصريف لمن عَجَز عن التأليف ولاسيّما في المقالة الثلاثين والأخيرة من كتابه، وهي المقالة التي أفردها لعمل اليد في أحوال الجَبْر والكَسْر والخَلْع والوَثي. وهي تحوي مقدمة تشير الى تدهور هذه الصناعة فيقول فيها : «لأن العمل باليد مُحسنُه في بلدنا وفي زماننا معدوم البتة حتى كاد أن يدرُس عَلَمُه وينقطع أثره ، إنما بقيت منه رسوم يسيرة في كتب الأوائل» .

وورد ذكر المصطلحين صانع اليد وعمل اليد في كتاب التيسير في المداواة والتدبير لأبي مروان عبد الملك بن زهر الإيادي الاشبيلي المولود في إشبيلية سنة ٤٦٤ والمتوفى فيها سنة ٥٥٧ هـ . وفيما يلي بعض الشواهد المقتبسة من مخطوطة كتاب التيسير ذات الرقم ٩١٢٨ التي يملكها المتحف البريطاني في لندن :

قال ابن زهر في البحث الخاص بجراح الرأس (وجه الورقة ١٠) : « فان كان الجرح بحديدة حديدة قد أخذ في العظم ولم ينتهِ الى داخل فحسبُك ذلك العلاج فالزمه . وأما ان كان قد وصل إلى أن نفذ ثُخن العظم ففي مثل هذا لابدّ من مشاهدة صانع اليد . ويكون بدء عمله الكشف عن العظم ثم تقريره بالصناعة التي ذكرها جالينوس في حيلة البُرء ، وقلّما يوجد في هذا الزمن من صُنّاع اليد فضلًا عنا معاشر أطباء التجربة والقياس والتكلم دون مباطشة[1] العمل باليد من يحسن

(١) في اللسان باطشه مُباطشةً وباطَشَ كبَطَشَ . وفي القاموس المُباطشة المُعالجة وأن يمد كل منهما يده الى صاحبه ليبطش به . واستدرك عليه تاج العروس بقوله : فلانٌ يبطُشُ في العلم ببَاعٍ بسيط وهو مجاز قال :

ويبطش بالعلم السماويّ بطشةً أرادَ بها يسطو على ثَبَجِ البحرِ

وفي معجم دوزي بطش يعني قَبَضَ وهذا معناه في المثل : بالساعِدَيْنِ تبطُشُ الكَفّانِ . وعليه فالمباطشة في كلام ابن زهر انما هي من باب المجاز فكأنه يريد ان يقول ان عمل صانع اليد انما هو من قبيل البطش بالآفة التي لا غنى في معالجتها عن عمل اليد .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

ذلك. وإنما ذكرته طمعاً بأن يوجد في الناس من يحسن تلك المباطشة ممن له حذق وحُنكة ودُربة كثيرة. فانه لايجب أن يتعرض الى ذلك إلا من باطشه تلميذاً بين يدي مُعلّمه مدة طويلة ثم باطشه منفرداً بذاته مدة».

وهو يقول (ظهر الورقة ١٠ ووجه الورقة ١١):

«وإنما يصعب هذا الأمر لأنا لم نر مُحسناً في ذلك، ولاسمعنا في وقتنا هذا بمن يجيد عمله، ولو كان المجيد لذلك موجوداً لم يكن أحد يموت من كسر عظم الرأس في الأكثر. فان ذلك كان يكون من الأسباب التي قدّرها الله سبحانه للبرء، كما أن تعذر المحسن في ذلك الآن سببٌ بقدر الله لهلاك من يصيبه ذلك في الأكثر. وأما مايصيب الغشاء الغليظ تحت العظم من أسباب بادية فذكري له فضلٌ لأني أعلم أن ماهو أسهل من ذلك، لايوجد في هذا الوقت من يجيد صنعته من صُنّاع اليد، وأحرى أن لا يوجد من لايجيد علاج ما هو أعوص من هذا فانا لاأطيل القول فيه».

واستعمل ابن زهر المصطلح صانع اليد وجمعه صُنّاع اليد في مواضع أخرى كثيرة من كتابه التسيير. ومن ذلك قوله في علاج بعض أمراض العين (ظهر الورقة ٢٠):

«وأما السِّلع فتكون في العين كما تكون في سائر الأعضاء. وهي في العين أصعب وأخطر وعلاجها بملازمة تنقية البدن ومداومة دهنها بزيت الورد المركب على دهن اللوز الحلو. فان لم ينجع ذلك فيها فلا بد من إخراجها، وصانع اليد اذا كان دَرِباً كفيل بذلك». وقوله (وجه الورقة ٢١ وظهرها): أما البَرَدَة فرطوبة غليظة تجمُد في باطن الجفن وتلتحج فيه، وعلاجها بتحسين الأغذية وتلطيفها، وأجود الأغذية في ذلك العصافير الدقاق متخذة بالمربى النقيع وبالخل وتَفايا[1] واليمام كذلك صالحة وبقلية السلق يلازمها، ويلازم دهنها بدهن الورد اللوزي الموصوف. فان

(١) في معجم دوزي ان تفايا كلمة مغربية وتعني طعاماً مطبوخاً يتألف من اللحم والتوابل وكزبرة البئر والزيت والملح والماء. وتعرف بالتفايا الخضراء متى كانت الكزبرة غضة، فاذا كانت الكزبرة يابسة عرفت بالتفايا البيضاء.

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

تفاقم أمرها إما لغفلة في أول حدوثها أو لكبرها في ذاتها فصانع اليد يخرجها بالشق عليها ، وليس شيء يحتاج اليه صانع اليد كاحتياجه الى معرفة التشريح ومنافع الأعضاء لئلا يغلط » .

وقوله (ظهر الورقة ٢٢): « وقد يُقطع شيء من الجلد الرقيق الذي على جفن العين وتخاط الشقاق بأدق مايوجد من الحرير الإبريسَم . وإن من صناع اليد من قد استنبط حيلة أخرى بديعة ، وهي أن تُفرض الجلدة الرقيقة وتشقّ شظيّة[1] من قصب وتدخل الجلدة المثناة في الشق وطرفا الشظية سليمان من الشق . وتترك كذلك حتى تتعفن تلك الجلدة المثناة وتسقط الشظية منها وقد التأم الخرق » .

وهو يقول أيضاً (ظهر الورقة ٣٢) : « وما يحدث من القلق به في العين يسكّنه رقيق البيض ، وأما إذا تمكن فلا بد فيه من أحد وجهين اما أدوية من الأدوية التي ذكرت لاذهاب السّبَل والظُّفرة يؤثر في ذلك بالمداومة ، وإما الى عمل صانع يد مُجيد يكشُطه على مايكشُط السبل والظُفرة » .

وقد يُظن أن ابن زهر حين قوله صانع اليد كان يحمّل هذا الوصف معنى الحذق والمهارة لا معنى الجرّاح أي الطبيب الذي يزاول مهنة الجراحة ، وذلك على اعتبار أن الصَناع وصنَاع اليد وصنَاع اليدين وسواها من الصفات المشتقة من الفعل صَنَع تتضمن معنى الحذق والمهارة . ولكن يؤخذ من الشواهد التي سبق ذكرها ومن شواهد أخرى استعمل فيها ابن زهر المصطلح صانع اليد ، سواء أكان ذلك في كتابه التيسير في المداواة والتدبير ، أم في كتابه الاقتصاد في اصلاح الانفس والأجساد ، أنه حين قوله صانع اليد لم يكن يعني سوى ذلك الطبيب الذي يعالج بيديه أو باستعمال الحديد كما كان يقول ابن زهر . وقد يكون هذا الصانع مصيباً

---

(١) في الصحاح الشظيّة الفِلْقة من العصا ونحوها والجمع الشظايا . وفي اللسان كل فِلقة من شيء شظيّة والشظية شِقّة من خشب او قَصَب او فضة او عظم .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

مجيداً في عمل اليد أحياناً كثيرة ، كما انه قد يكون مخطئاً مسيئاً احيانا أخرى كثيرة. قال ابن زهر في كتابه الاقتصاد في اصلاح الأنفس والأجساد وذلك في البحث الخاص بقصر الشفة العليا (وجه الورقة ١٤ من مخطوطة باريس ذات الرقم ٢٩٥٩) :

« وأما قصرها فعلاجه عسير جداً ، إلاّ أنه يحتاج فيه الى معرفة بعلم التشريح ودُربة في النَطس به وذلك أنه لابد في علاجه من أن يؤتى الى وسط الشفة فتقطع عرضاً قطعاً نافذاً وتُجذب الشفة الى أسفل وتمنع من الالتحام بدمها حتى ينبت بين الشفرين لحم يملأ ذلك الفضاء . ثم يُختم الجرح بأدوية دامية وخاتمة ، وفي هذه الحال يتوقع غلط الصانع فيميل بالقطع إلى احد الجانبين فيضر بالشفة ويفصل العصب المحرك لها فلذلك يجب ألا يتولاه إلا من له خبرة بالتشريح ».

فيتضح إذن من هذه النبذة المقتطعة من كتاب الاقتصاد ، أن ابن زهر حين قوله غلط الصانع يقيم الصفة مقام الاسم الموصوف ، وبجرد لفظة الصانع من معنى الحذق والمهارة فلا يجعل لها غير دلالة واحدة وهي الطبيب الذي يزاول عمل اليد أي ما نسميه اليوم بالجراحة .

ويبدو أن المصطلحين صانع اليد وعمل اليد اللذين استعملا في الأندلس منذ زمن أبي القاسم الزهراوي أو قبله ، دام استعمالهما في اللغة العربية حتى القرن الحادي عشر الهجري على أقل تقدير . وإنما يدعونا الى هذا القول أن داود الأنطاكي المتوفى سنة ١٠٠٨ هـ ذكر في كتابه تذكرة أولي الألباب والجامع للعجب العجاب (القاهرة ١٢٨١ هـ ، ج٢ ص ٢٦٢ — ٢٦٣) ما يلي :

« وبطُّ الخراج ونحوه وهو نوع من عمل اليد ... ومن ثم شرطنا احتياج صاحب عمل اليد الى الهندسة» . واستعمل الأنطاكي في تذكرته المصطلح صناعة اليد فقال (ج٢ ص ٣٣٠) :

« أول من تصدّى لإفراد صناعة اليد حُذّاق الهند كذا قُرِّر في الطبقات والذي رأيت عن ابقراط أنه اختار أربعة من تلامذته فقال لأحدهم تصدّ لتقدير الطبيعة ، وقال للآخر استعمل نفسك في تحقيق ما يتعلق بالعين ،

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

وللآخر تصدّ لصناعة اليد ، وللرابع اضرب في الأرض لتحصيل أنواع النبات».

المصطلح جرائحي

أما لفظة الجرائحي فيرجح أنها استعملت أولاً في المشرق ، وأن استعمالها يعود الى القرن الرابع الهجري . وكان ممن استعملوا هذه اللفظة الطبيب ابن بُطلان البغدادي المتوفى في انطاكية سنة ٤٥٨ هـ وذلك في كتابه دعوة الأطباء (الاسكندرية ١٩٠١ م) وهو كتاب أدبي وصفه في المقدمة بقوله :

« هذه رسالة دعوة الأطباء على مذهب كليلة ودمنة تشتمل على مزح يبسِم عن جِدّ وباطل ينطق عن حق ، وخير القول ما أغنى جده وألهى هزله صنفها أبو الحسن المختار بن الحسن بن بُطلان للأمير نصر الدولة أبي نصر أحمد بن مروان صاحب ميّافارقين وديار بكر ». وقد استعمل ابن بطلان في رسالته (ص٣٨) لفظة الجرائحيّ فقال :

« ثم شرب وقال لغلامه امض إلى تلميذي أبي جابر الفاصد وادعُه ومعه عودُهُ وجُز بصديقنا أبي أيوب الكحال وأبي سالم الجرائحيّ وقل لأبي موسى الصيدلاني بحياتي عليك إلا جعلتنا في هذا اليوم من زُبُنك (في الأصل زبونك). فما كانت هنيهة حتى حضر القوم فسلموا فرددنا عليهم السلام» . وقال ابن بطلان في مكان آخر من رسالته (ص ٤٧) : « فشربت الجماعة ثم أومأ اليّ وقال يحتاج الجرائحيّ أن يكون عالماً بالتشريح ومنافع الأعضاء ومواضعها ليتجنب في فتح المواد قطعَ الأعصاب وأطراف العضل والأوتار والألياف».

ووردت لفظة الجرائحي في كلام أُسامة بن مُنقذ الشَّيْزري (٤٨٨-٥٨٤هـ) وذلك فيما رواه في كتابه الاعتبار (تحقيق فيليب حتي ، برنستون ١٩٣٠) من القصص الشائقة التي وصف فيها ماخاضه من المعارك مع الافرنج في قلعة شَيْزَر والمناطق المحيطه بها على العاصي الى الشمال الغربي من حماه. قال أُسامة (ص٥٥) :

« وجُرِح عمي عز الدولة رحمه الله في ذلك اليوم عدة جراح منها طعنة طُعنها في جفن عينه السفلاني من ناحية المآق . ونشب الرمح في المآق عند مؤخر

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

العين فسقط الجفن جميعه وبقي معلقاً بجلده من مؤخر العين والعين تلعب لا تستقر. وانما الجفون التي تمسك العين. فخاطها الجرائحي وداواها فعادت كحالها الأولى لا تُعرف العين المطعونة من الاخرى».

وقال أيضاً (ص ١٤٦):

«كان في أصحابنا من بني كنانة رجل أسود يقال له عليّ بن فرج طلعت في رجله حبة فتَخبّثتْ وتناثرت أصابعه وأنتَنت رجله. فقال الجرائحي ما لرجلك إلا القطع وإلا تلفت. فحصّل عنده منشاراً وجعل ينشر ساقه حتى يغلبه فيض الدم ويُغشى عليه، فإذا هو أفاق عاد إلى نشرها حتى قطعها من نصف ساقه وداواها فبرئت».

وكان ممن أكثروا استعمال لفظة الجرائحي ورجحوها على أية لفظة أخرى بمعناها، الطبيب المؤرخ ابن أبي أصيبعة (٥٩٦ - ٦٦٨ هـ) فقد ذكر في كتابه عيون الأنباء في طبقات الأطباء (القاهرة ١٢٩٩ هـ ج١ ص ٣٢٠) أن لعبيد الله بن جبريل بن بختيشوع المتوفى في ميّافارقين بعد سنة ٤٥٠ هـ، كتاباً عنوانه مناقب الأطباء، وأنه أتم تأليفه سنة ٤٢٣. وكان من عادة ابن أبي أصيبعة، أن يُضمّن كتابه عيون الأنباء بعض ما ينقله من كتاب مناقب الأطباء، ومما نقله عنه في ترجمته لأبي محمد بن زكريا الرازي قوله (ج١ ص٣١):

«إنه لما عمّرَ عضد الدولة البيمارستان الجديد الذي من طرف الجسر من الجانب الغربي من بغداد كانت الاطباء الذين جمعهم فيه من كل موضع أربعة وعشرين طبيباً، وكان من جملتهم جماعة طبائعيون. قال عبيد الله وكان والدي جبرئيل قد أُصعد مع عضد الدولة من شيراز ورُتّب في جملة الطبائعيّين في البيمارستان وفي جملة الاطباء الخواص. قال وكان في البيمارستان من هؤلاء من الكحالين الفضلاء أبو النصر بن الدحلي ومن الجرائحيين أبو الخير وأبو الحسن بن تُفاح وجماعته ومن المجبرين المشار إليهم أبو الصلت».

ويقول ابن ابي اصيبعة في مكان آخر من كتابه عيون الانباء (ج٢ ص١٤١):

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

« كان بدمشق فاصد يقال له ابو الخير ، ولم يكن من المهرة فكان من امره ان فصد شاباً فوقعت الفصدة في الشريان فتحير وتبلد وطلب قطع الدم ، فلم يقدر على ذلك فاجتمع الناس عليه . وفي اثناء ذلك اطلع صبي عليه فقال يا عماه افصده في اليد الاخرى ، فاستراح الى كلامه وفصده من يده الاخرى فقال شد الفصد الاول ، فشده ووضع لازوقاً كان عنده عليه وشده فوقف جرية الدم . ثم مسك الفصدة الاخرى فوقف الدم وانقطع الجميع . ووجد الصبي يسوق دابة عليها حمل شيحٍ فتشبث به وقال من أين لك ما امرتني به . قال انا ارى ابي في وقت سقي الكرم اذا انفتح شق من النهر وخرج الماء منه تجده لا يقدر على امساكه دون ان يفتح فتحاً آخر ينقص به الماء الاول الواصل الى ذلك الشق ، ثم يسده بعد ذلك . قال فمنعه الجرائحي من بيع الشيح واقتطعه وعلمه الطب ، فكان منه اليبرودي من مشاهير الاطباء الفضلاء (توفي اليبرودي في دمشق سنة نيف واربعمائة) .

وفي موضع آخر من كتابه عيون الانباء يقول ابن ابي اصيبعة (ج ٢ ص ١٧٩) :

« وحدثني ايضاً عنه انه كان معه في البيمارستان الكبير الذي انشأه نور الدين بن زنكي وهو يعالج المرضى المقيمين به ، فكان من جملتهم رجل به استسقاء زقي قد استحكم به فقصد الى بزله . وكان في ذلك الوقت في البيمارستان ابن حمدان الجرائحي وله يد طولى في العلاج » .

ففي الشواهد المتقدمة اذن ، دلالة على ان ابن ابي اصيبعة . لم يستعمل في كتابه عيون الانباء غير لفظة الجرائحي لتسمية الممتهن لعمل اليد تمييزاً له من سائر المشتغلين بصناعة الطب ، فكان على نقيض معاصره ابن القفّ الذي سمى كتابه في عمل اليد بالعمدة في صناعة الجراحة ، وذلك في زمن كان الشائع فيه استعمال اللفظتين الجرائحي وصانع اليد ، ولم يكن قد شاع

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

بعد فيه استعمال كلمة الجراح . ومما يثبت انكار ابن ابي اصيبعة لكلمتي الجراح والجراحة ورفضه استعمالهما ، انه في ترجمته لابن القف في كتابه عيون الانباء (ج ٢ ص ٢٧٤) قال ما يلي :

« وخدم ابو الفرج بن القف بصناعة الطب في قلعة عجلون وأقام بها عدة سنين ثم عاد الى دمشق وخدم في قلعتها المحروسة لمعالجة المرضى ، وهو محمود في أفعاله مشكور في سائر احواله . وله من الكتب كتاب الشافي في الطب ، شرح الكليات من كتاب القانون لابن سينا ست مجلدات ، شرح الفصول كتابين ، مقالة في حفظ الصحة ، كتاب العمدة في صناعة الجراح عشرين مقالة علم وعمل ، يذكر فيه جميع ما يحتاج اليه الجرائحي بحيث لا يحتاج الى غيره ، كتاب جامع الغرض مجلد واحد ، حواش على ثالث القانون لم يوجد ، شرح الاشارات مسودة ولم يتم ، المباحث المغربية ولم تتم ، توفي في جمادى الاولى سنة خمس وثمانين وستمائة والله اعلم » .

وقد دامت لفظة الجرائحي شائعة الاستعمال حتى القرن التاسع الهجري او بعده ، فان احمد بن علي القلقشندي (٧٥٦ – ٨٢١ هـ) ذكر في كتابه صبح الاعشى في قوانين الانشا (القاهرة ١٣٣١ هـ ج ٤ ص ١٩٤) ما يلي: « ...من الوظائف في دمشق وظائف ارباب الصناعات ، فمنها رياسة الطب ورياسة الكحالين ورياسة الجرائحية ، وكلها على نحو ما تقدم في الديار المصرية ». وبما أن القلقشندي أتم تأليف كتابه صبح الاعشى سنة ٨١٤ ، فان قوله على نحو ماتقدم في الديار المصرية يدل على ان لفظة الجرائحي التي استعملت في العراق في القرن الخامس الهجري كانت لا تزال مستعملة في الشام ومصر في القرن التاسع او بعده ، كما دام استعمال المصطلح صانع اليد في الشام الى مابعد القرن الحادي عشر . وكذلك فان لفظة الجراح التي يُظنّ ان ابن القف كان اول من استحدثها في الشام في القرن السابع ، لايبعد انها كانت تستعمل بين آن وآخر في الوقت الذي كان فيه المصطلحان صانع اليد والجرائحي شائعي الاستعمال

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

وكما يلاحظ فان القلقشندي جمع الجرائحي على جرائحية اي بزيادة الهاء ، في حين ان ابن اصيبعة جمعها جمعاً سالماً فقال جرائحيون وجرائحيين . ومما يبدو لدى الاستقصاء ايضاً ان لفظة الجرائحي ، وإن بدأ استعمالها على الارجح في القرن الخامس ، فقد سبقها استعمال كلمة الجرائح على انها جمع جراحة اي جرح فقالوا معالج الجرائح بدلاً من الجرائحي . والدليل على ذلك ان القاضي المحسِّن ابن علي التنوخي (٣٢٧ – ٣٨٤ هـ) ذكر في كتابه نشوار المحاضرة (بيروت ١٩٧١ ، ص ٢ – ٧ من المقدمة) أسماء أصحاب المناصب والاعمال والمهن ، ومنهم معالجو الجرائح فقال : « . . . من أخبار الملوك والخلفاء والكتاب والوزراء . . . والعروضيين والشعراء . . . والاطباء والمنجمين والكحالين والفصادين والأساة والمجبرين ومعالجي الجرائح والقمائحيين[1] . . . الخ . » فاستعمال القاضي التنوخي للمركب الاضافي معالجي الجرائح بدلاً من الجرائحيين يدل على أن لفظة الجرائحي لم تكن بعد قد استحدثت في عصره ، وأن اللفظة جرائح استعملت قبل ان نسبوا اليها باللفظة جرائحي التي أكثر ابن أبي أصيبعة من استعمالها نقلاً عن ابن بطلان وعبيد الله بن جبرئيل .

متى وضع المصطلحان عمل اليد وصانع اليد

أما المصطلح عمل اليد الذي تقابله لفظة الجراحة في هذا العصر ، فيرجح

---

(١) القمائحيون جمع قمائحي كلمة مولدة لم تذكرها المعجمات ، وهي النسبة الى قمائح جمع قميحة كفصيلة وفصائل وقبيلة وقبائل . والقميحة هي الدواء المُعدُّ سفوفاً او مسحوقاً ليستفّه المريض . فالقمائحيون هم الذين يركبون القمائح أي الأدوية المسحوقة ليأخذها المريض استفافاً . واذا تُوُسِّع في اللفظة فالقمائحيون هم الصيادلة ، وهذا على الأرجح ما عناه القاضي التنوخي في نِشوار المحاضرة .

وقال أحمد تيمور في مقاله تفسير الألفاظ العباسية في نشوار المحاضرة (مجلة المجمع العلمي العربي ، م٢ ص ٢٩٢) القمائحيون صانعو القمائح او المعالجون بها ، وقد شاعت عند المولدين النسبة الى الجمع في أمثال هذه الصناعات كالجرائحي والحشائشي والطبائعي .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

المشتغلون بتاريخ الطب العربي أنه نشأ في المشرق وذلك في صدر الدولة العباسية حين نشطت حركة الترجمة والتعريب لكتب الطب اليونانية ، فوُضع إذ ذاك المصطلح عمل اليد ترجمة عن اللفظة اليونانية التي تقابله وهي cheirourgia ثم انتقل المصطلح العربي الى المغرب فاستعمله الزهراوي في كتاب التصريف كما استعمله ابن زهر في كتاب التيسير . أمـــا إن المصطلح عمل اليد مترجم عن اليونانية cheirourgia فلأن هذه اللفظة مركبة من cheir أي يد و ergon أي عمل . وتصادف البادئة -cheir في عدد من الالفاظ الفرنسية والانكليزية من طبية وغير طبية ، ومثال هذه الالفاظ :

chiromégalie الفرنسية ويقابلها بالانكليزية cheiromegaly وتعنيان ضخامة اليدين و cheirospasm الفرنسية ويقابلها بالانكليزية cheirospasm وتعنيان تشنج عضلات اليد و chiromancie الفرنسية ويقابلها بالانكليزية chiromancy وتعنيان قراءة خطوط الكف وغير ذلك .

وكما أن اللفظة اليونانية cheirourgia ترجمت الى العربية ، فقد نقلت عنها اللفظة اللاتينية chirourgia وهذه أخذت عنها اللفظة الفرنسية القديمة cirurgie التي تولدت منها اللفظة الفرنسية الحديثة chirurgie واللفظة الانكليزية المحرفة surgery أي جراحة . وأما المصطلح صنع اليد الذي استعمله ابن زهر نقلاً عن المشرقيين ، وتقابله لفظة الجراح التي قد يكون ابن القف أول من ابتكرها ، فهو ايضاً مترجم عن اليونانية cheirourgos أي عامل باليد او جراح ، وهذه اخـــذت منها اللفظتان chirurgien [1] الفرنسية و surgeon الانكليزية وتعنيان الجرّاح .

---

(١) جاء في معجم أصول الألفاظ الفرنسية أن اللفظتين chirurgie و chirurgien بدأ استعمالها في فرنسا في القرن الثاني عشر .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

أقوال المعجمات

أسهبت المعجمات قديمها وحديثها في إيراد صيغ الصفات المشتقة من الفعل صَنَع والدالة على المهارة والحذق بعمل اليدين ، كالصِّنْع والصَّنْع والصَّنِع والصَّنَع والصَّنيع والصَّنيعة والصِّناع، فأوردتها مفردة ومثناة ومجموعة ومجردة من الإضافة ومضافة الى اليد او الى اليدين حقيقة ومجازاً . وقد جاء عن الصَّنَع مثلاً رجلٌ صَنَعٌ وصَنَع اليد وصَنَع اليدين ، ومن المجاز رجل صَنَع اللسان ولسان صَنَعٌ. وجاء عن الصَّنَاع رجل صَنَاع اليد وصَنَاع اليدين وامرأة صَنَاعٌ وصناعُ اليد وصَنَاعُ اليدين. وقال الراجز في صفة المرأة : وهي صناعٌ باللسان واليدِ . وفي حديث عمر حين جرح قال لابن عباس انظر من قتلني فجال ساعة ثم أتاه فقال غلام المغيرة بن شعبة ، فقال الصَّنَع ، قال نعم ، قال ماله قاتله الله ، والله لقد كنت أمرت به معروفاً .

وقال ابن بَرّي : والذي اختاره ثعلب رجل صَنَع اليد وامرأة صَنَاعُ اليد فيجعل صناعاً للمرأة بمنزلة كَعَاب ورَدَاح وحَصَان . وقال ابن جِنّي : قولهم رجل صَنَعُ اليد وامرأة صَنَاعُ اليد دليل على مشابهـــة حرف المدّ قبل الطرف لتاء التأنيث ، فأغنت الألف قبل الطرف مغنى التاء التي كانت تجب في صَنَعة لو جاء على حكم نظيره نحو حَسَن وحَسَنة .

على أن المعجمات العربية أوجزت كل الإيجاز فيما ذكرته عن الصانع ، فجاء فيها أنه اسم الفاعل للفعل صَنَع ، وزادت المعجمات الحديثة على ذلك أن الصانع من يعمل بيديه ومنه صانع الحدّاد والنجّار وغيرهما ، لمن يتعلم عندهم صناعتهم والصانع من يحترف الصناعة، ويستعمل المولدون الصانع بمعنى الخادم ج صُنّاع. وعليه فان الصانع لم تذكره المعجمات مضافاً الى اليد او الى اليدين كالصَّنَع والصَّنَاع للدلالة على الحذق والمهارة في عمل اليدين ، مع أن الفعل صَنَع يتضمن في مواضع معينة معنى إجادة العمل وإتقانه كما في قول لبيد :

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

لعمرُك ماتدري الضوارب بالحصى ولا زاجراتُ الطيرِ ماالله صانِعُ

غير أن الفعل صَنَع في مواضع أخرى لايؤدي إلا مايؤديه الفعل عَمِلَ كقول الشاعر :

وارحمتا للغريب بالبلد النازح ماذا بنفسه صَنَعا
فارق أحبّابَه فما انتفعوا بالعيشِ من بعدِهِ ولا انتفَعَا

وعلى نقيض ماجاء في المعجمات الحديثة عن الصانع ، فقد نسبت هذه المعجمات الى الصانعة معنى الحذق والمهارة ، ولكن باضافتها الى اليدين فقالت امرأة صانعة اليدين أي حاذقة ماهرة في عمل اليدين . وقد كان معجم محيط المحيط (صدر سنة ١٨٧٠) أول المعاجم الحديثة التي ذكرت ذلك عن الصانعة ، واقتدى به سائر المعاجم التي صدرت بعده ، خلا معجم متن اللغة (صدر سنة ١٩٦١) فانه خالفها جميعاً فلم يذكر الصانعة مضافة الى اليدين ولم ينسب اليها معنى إجادة العمل ، وهو بهذا يكون قد نحا نحوَ المعجمات القديمة التي اقتصرت على قولها الصانعة مؤنث الصانع .

يدل ماتقدم إيضاحه على أن ابن زهر حين استعماله للمصطلح صانع اليد لم يكن مضمّناً له معنى الحذق والمهارة في عمل اليد ، وإنما أراد به شيئاً واحداً مُعَيَّناً وهو ذلك الطبيب الذي يعالج المريض بيديه مستعملاً في عمله ما استطاع اكتسابه في سالف حياته من الخبرة والدربة ، لاسيما وأنه قد يكون ممن استعملوا المصطلح صانع اليد نقلاً عن المشرقيين الذين استحدثوا هذا المصطلح ترجمة عن مقابله باليونانية كما سبقت الاشارة اليه .

ويدل بناء الكلمة جرائحيّ على أنها نسبة الى الجرائح التي استعملها القاضي التنوخي كما تقدم ذكره ، مما يحمل على الظن بأنها استحدثت لتكون جمعاً للمُفرد جراحة بمعنى الجُرح ، ولو لم يَرِد هذا الجمع في معجمات اللغة ، وإنما نصت

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

المعجمات على أن جراحة تجمع على جِرَاح لاعلى جرائح . وجاء في تاج العروس وزن فِعال إن لم تلحقه الهاء فهو اسم لما يجعل به الشيء كالآلة ، فإن لحقته الهاء فهو اسم لما يشتمل على الشيء ويحيط به كاللفافة والعِمامة والقِلادة . اهـ . قلت وهذه تجمع على فعائل ، ومع أن الجراحة لاتحتمل معنى الإشتمال والإحاطة فقد جمعت على جرائح ، أي أنهم ولّدوا لهـا جمعاً لم تنص عليه كتب اللغة . ويستدرك على ذلك أن الجراحة تُجمع على جِراح فكان من المستطاع أن ينسب اليه فيقال جِراحيّ . وجاء في محيط المحيط الجِراحيّ الذي يعالج الجراح وصنعته الجراحة، والعامة تقول جرائحيّ للمفرد وجرائحية للجمع، والجرّاح الجراحيّ .

وأما لفظة الجِراحة التي تعني في الاصطلاح الحديث فرعاً من الطب يتناول معالجة الجِراح كما يتناول معالجة بعض الأمراض بوساطة الآلات القاطعة وسواها، أو باليدين الخاليتين من الآلات ، مما لا تتيسّر معالجته بالأدوية ، فانها لم ترد بهذا المعنى في المعجمات القديمة نظير لسان العرب والقاموس وتاج العروس مع أن هذه المعجمات أُلِّفَتْ بعد القرن السابع الهجري أي بعد زمن ابن القف ، ولكن ورد في هذه المعجمات أن الجراحة تعني الجرح وجمعها جِرَاح ، وجاءت في قول المتنبي :

وشكيّتي فقد السقام لأنه قد كان لما كان لي أعضاءُ
مثّلت عَينَك في حشاي جِراحة فتشابها كلتاهما نجلاءُ

وتُجمع الجِراحة على جراحات ومنه قول الآخر :

جراحات السِّنَان لها التآم ولا يلتامُ ماجرح اللسانُ

وكذلك لفظة الجَرّاح التي تعني في مفهومنا الحديث الطبيب الذي يزاول الجراحة ، فانها لم ترد في المعجمات القديمة المذكورة بهذا المعنى ، ولكن ورد

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

فيها أن الجرّاح على وزن شدّاد اسم عَلَم ويكنى به فيقال أبو الجرّاح وابن الجرّاح . وقد وردت اللفظة جراحة بمعنى فرع من الطب في المعجمات العربية الحديثة، كما وردت فيها الألفاظ جَرّاح وجِراحيّ وجرائحيّ لمن كانت صَنْعَتُهُ الجِراحة . وفي البستان الجراحة مولدة ، وفي المعجم الوسيط الجرائحي مولدة والجراحة والجرّاح محدثتان . وأما المصطلحان صانع اليد وعمل اليد فلم يرد لهما ذكر في المعجمات بالمعنى الذي تؤديه لفظتا الجراح والجراحة .

الخلاصة

يؤخذ مما تقدم أن اللفظتين جراحة وجراح لم تكونا معروفتين في زمن أبي القاسم الزهراوي وزمن أبي مروان عبد الملك بن زهر ، وإنما كان المصطلحان المستعملان صانع اليد وعمل اليد ، ولم يستحدث المصطلحان جراحة وجراح إلا في أواسط القرن السابع الهجري والثالث عشر الميلادي أي في زمن أبي الفرج موفق الدين يعقوب بن القفّ . وقد عادت اليوم المصطلحات صانع اليد وعمل اليد وصناعة اليد والجرائحيّ والجراحيّ من المصطلحات المُمَاتَة[1] وبقي المصطلحان جِراحة وجَرّاح لأن الزمن اثبت فضلهما على المصطلحات القديمة ، والبقاء للأصلح في عالم الألفاظ كما هو في عالم الأحياء .

ميشيل الخوري

---

(١) في الصحاح الموت ضد الحياة وقد مات يموتُ ويَمات . وأماته الله ومَوّته شدّد للمبالغة ، وهكذا في سائر المعجمات القديمة فلم يرد فيها استعمال أماتَ مجازاً للفظ الذي يترك استعماله . وفي محيط المحيط وأقرب الموارد وهما معجمان حديثان أُميت اللفظ على المجهول ترك استعماله فهو مُمات

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net